واقع الشعر السياسي الجزائري وقضاياه في عهد الحكم التركي

أ. محمد أوجرتني
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة

الملخـــص:

الشعر السياسي العربي مجال خصب، أبدع فيه الشعراء بالتأثير في دواليب الحكم، وتحريك أطراف السلطة. بفضل تأثيره في نفوس المستمعين، وكثيرا ما وصفت الجزائر في العهد العثماني بالتخلف والجمود وغياب الثقافة وضعف الأدب والفنون، لانشغال الناس بالحروب والنزاعات، غير أن الشعر السياسي برز دون غيره من أنواع الأدب والشعر الأخرى ولعب دورا مهما. وفي عدة مناسبات اجتمع الشعراء حول قضايا حملت همومهم، بالرغم من قلة اهتمام الأتراك بتشجيع الأدب والثقافة والعناية بالشعراء والمثقفين.

وسعى الشعراء في استغلال الشعر للتأثير على النظام السياسي بتقديم النصح والتوجيه تارة وبالدفع نحو الثورة والتمرد تارات أخرى، وكانوا يتخيرون الأسلوب الشعري المناسب واللغة المؤثرة، فتنوعت القصائد الشعرية والصور المعبر عنها من الشعر العمودي الموزون إلى الشعر العامي إلى الأرجاز إلى الشعر الرمزي.

وتهدف هذه الدراسة التي تحمل عنوان الشعر السياسي في الجزائر إبان العهد العثماني واقعه وقضاياه إلى إبراز واقع الشعر السياسي، ومحاولة معرفة الواقع الأدبي عموما والعوامل المؤثرة فيه، والذي يندرج بين مقلل من أهمية هذا الصنف من الشعر، ومبالغ في ترتيبه ضمن الشعر العربي الكلاسيكي، كما تهدف الدراسة تسليط الضوء على أسباب ضعفه، وفق ما أجمع عليه الباحثون ومحاولة معرفة عوامل انتشار وشيوع الأساليب الركيكة في التعبير الشعري كما تقدم هذه الدراسة مقاربات لمحاولة تجسيد تكاملية المعرفة بين صنفين من العلوم والمعارف وإبراز مدى استفادة كل منهما من الآخر: الشعر والتاريخ، والتأكيد على مكانة الأدب والشعر والفنون في التأريخ وتفسير الحوادث التاريخية.

أولا– مقدمة:

لا يزال الشعر على مر العصور يصنع المآثر ويقف خلف المنعطفات الحاسمة التي يصنعها رجال الحكم وممارسو السياسة والشاعر أوثق علاقة بنصه من أي أديب آخر قاصا كان أو مؤلفا فالشاعر يعتمد على قوة التعبير التي تحملها اللغة ليصور إيحاءاته وأفكاره[1]، وتتباين تأثيرات الشعراء في ميدان السياسة من زمن لآخر، بتباين الذوق العام واختلاف أمزجة الحكام والمحكومين فلكل عصر ذوقه اللغوي والتصويري الخاص به وقيمه الفكرية ومطالبه التي يروق له تصويرها[2]، والشعر السياسي العربي مجال خصب، أبدع فيه الشعراء بالتأثير في دواليب الحكم، وتحريك أطراف السلطة. بفضل ما يملكه الشعر من قدرة على التأثير في نفوس المستمعين، وكثيرا ما كان العهد العثماني عند المؤرخين والباحثين مرادفا للتخلف وغياب الثقافة والفنون، لإنشغال الناس بالحروب والنزاعات، فكيف كان وضع الشعر السياسي في الجزائر خلال هذه الفترة، وهل درج الشعراء مسلك من سبقهم في قول الشعر القوي المؤثر والفعال؟ وما هي المناسبات التي يجتمع الشعراء حولها؟ وما هي القضايا التي استرعت اهتمامهم؟ وإلى أي مدى عمل الأتراك في الجزائر على تشجيع الأدب والثقافة وفتح المجال أمام الشعراء والاعتناء بهم للمساهمة في ترقية الذوق العام والمواطنة؟.

وهل حاول الشعراء استغلال الشعر في التأثير على النظام السياسي أو الدفع نحو الثورة والتمرد؟ أم كانت دعوة الشعراء في الاتجاه المعاكس، دعوة للموادعة والاكتفاء بالمرثيات الدينية والأراجيز والبطولات؟

---

[1]– محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار العودة بيروت، 1982، ص 408.

[2]– المرجع نفسه ص 408.

2- أهداف الدراسة:

تكمن خلف هذه الدراسة جملة من الأهداف منها:

- السعي لإلقاء الضوء على غرض من أغراض الشعر في الجزائر العثمانية ومحاولة معرفة واقعه والعوامل المؤثرة فيه وإلى أي المذاهب الفنية ينتمي.
- دراسة أسباب ضعف هذا الصنف من الشعر وفق ما أجمع عليه الباحثون ومحاولة معرفة عوامل انتشار وشيوع الأساليب الركيكة في التعبير الشعري.
- محاولة تجسيد تكاملية المعرفة بين صنفين من العلوم والمعارف وإبراز مدى استفادة كل منهما من الآخر: الشعر والتاريخ.
- بناء وتأسيس لمجال معرفي تاريخي جديد يدور حول الشعر السياسي والشعر بصورة عامة ودوره في التأريخ للحوادث التاريخية.

3- منهج الدراسة:

نظرا لطبيعة المعالجة فقد سعيت لتوظيف النصوص الشعرية توظيفا تاريخيا معتمدا أسلوب المنهج الاستنباطي، والمنهج التاريخي الوصفي، ولجأت في بعض الأوقات لاستعمال منهج المقارنة، خاصة في ما يتعلق بمقابلة النصوص الشعرية بين فترات تاريخية متباينة للوصول إلى توصيف رؤية متكاملة لموضوع البحث.

ثانيا- مدخل حول الشعر السياسي في التاريخ العربي:

وقبل مناقشة هذه القضايا يجدر بنا أن نعرج على مكانة الشعر السياسي في التراث العربي لأخذ صورة متكاملة عن الموضوع. فقد كان الشعر عند العرب منذ العصر الجاهلي جزءا من حياة الفرد والقبيلة معا، فكان لكل قبيلة شاعرها أو شعراؤها الذين يبرزون مجدها وعزها ويخلدون مآثره ففي العصر الجاهلي صور

الشعراء واقع الحياة السياسية التي تخلو من النظام والأمن وتتجلى فيها مكانة السيف والجماعة دون غيرهما قال زهير بن أبي سلمى[1]:

وَمَنْ لم يُصانِعْ في أُمُورٍ كَثِيـــرَةٍ يُضَرَّسْ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأْ بِمَنْسِـــمِ

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يُهَدَّمْ، ومن لا يظلم الناسَ يُظْلَمِ

ولما ظهر الإسلام استغل مشركو قريش كل الوسائل لمحاربة الدين الجديد، منها الشعر، وكان حسان بن ثابت شاعر الرسول (ص) وأصحابه يقفون مدافعين عن الدعوة يرُدُّون كيد المشركين، الذين أرخوا العنان لألسنتهم للنيل من النبي ومن أتباعه من المؤمنين وكان الرسول يحث حسانا بقوله: "اهجهم وروح القدس معك"[2].

وكاد الشعراء في فترة الخلفاء الراشدين أن يمسكوا عن الخوض في مسائل الجاهلية، من هجاء وتنابز وتفاخر بالأجداد، فقد حث الإسلام على العفة وحسن الظن بالناس والمروءة، ويذكر الرواة أن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر ذات يوم فإذا حسان في نفر من المسلمين ينشدهم شعرا في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، فأخذ بأُذُنِهِ وقال: "أَرُغَاءٌ كرغاء البعير" ؟ فقال حسان : إليك عني يا عمر، فو الله كنت أنشد في هذا المكان من هو خير منك فيرضى، فمضى عمر وتركه[3].

وكان عمر يستهجن الشعر الذي يوقظ الأضغان والكره بين الناس، لكنه لم يمنع الناس من قوله حيث قال: "قد كنتُ نهيتكم عن رواية هذا الشعر لأنه يوقظ الضغائن، فأما إذا أبوا فاكتبوه".

وجاء العهد الأموي بعد الحوادث الجسام التي هزت المسلمين بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، وفي الجملين وصفين، غزيرا في إنتاج الشعر السياسي، مع تعصب بنو

---

[1]- يوسف بن سليمان بن عيسى476ت، أشعار الشعراء الستة الجاهليين، دار الآفاق الجديدة بيروت، الطبعة الثانية، 1981، ص287.

[2]- أبو زيد محمد بن أبي خطاب القرشي، المرجع السابق، ص30.

[3]- طه حسين في الشعر الجاهلي، دار الندوة الاليكترونية، .كتاب اليكتروني مصر القاهرة ص31.

أمية للعنصر العربي وإيثارهم الصبغة العربية التي طبعوا بها دولتهم،[1] مما ساهم في ظهور الفرق السياسية والدينية، كالشيعة والخوارج وكان لكل فرقة شعراؤها وخطباؤها يطرحون برامجها السياسية ويسعون لكسب الأنصار وإضعاف الخصوم، بل لقد كان لكل زعيم وقائد ومنافس شعراءه المعجبين به والداعمين له.

ولم يكن العصر العباسي بمنأى عن تأثير الشعراء في سياسة الحكم وتوجيهها بالرغم من تأثر الساحة السياسية الثقافية العباسية بعوامل جديدة، كمساهمة الموالي في بناء الدولة العباسية وتطلعهم لنيل المكافأة على ذلك،[2] واعتزازهم بعرقهم ونسبهم الأعجمي. وانتقال عاصمة الدولة من دمشق إلى بغداد وما رافقها من هجرة للعرب والأجناس الأخرى.

كما برزت ملامح مجتمع جديد، فسيفسائي التكوين اتجهت غالبية أفراده نحو الترف والبذخ واقتناء الجواري والغلمان والانغماس في الملذات وظهور نزعات جديدة تقوم على الشك في الغيب والإلحاد والزندقة والمجون والجهر بها[3] كما أكثرت النخبة من الاقتباس من الشرق ومن اللغة الفارسية والكلمات الأعجمية، وصار الاشتغال بصناعة الكلام ودراسته أكثر من الارتجال والحفظ.

وقد تنوعت مذاهب العيش والحياة في المجتمع العباسي وطبقاته وفئاته فكان فيه التقي والزاهد والمتصوف، إلى جنب الماجن والمتهتك وممتهن الزندقة، وكان لكل دعاته وأربابه ومريدوه[4]، وقد بلغ الأدب العربي ومن ضمنه الشعر السياسي قمّته الفنية في العهد العباسي، ثم شرع ينحدر نحو الضعف والركود[5]، ومن أبرز شعراء

---

[1]- أحمد الأسكندري ومصطفى نحاس، الوسيط في الأدب العربي وتاريخه، مطبعة المعارف القاهرة، 1939، ص183.

[2]- أحمد الأسكندري، المرجع السابق، ص183.

[3]- سراج الدين محمد، المرجع السابق، ص 33.34

[4]- كاظم جطيط دراسات في الأدب العربي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1977، ص17.

[5]- المرجع نفسه ص20.

هذا العهد بشار بن برد وسهيل بن هارون وأبو نواس والمتنبي وأبو فراس الحمداني[1]، ولم يلتزم في غالب الأحيان هؤلاء الشعراء وغيرهم بمذهب الدولة العباسية وكانت تشتتهم الولاءات والعصبيات.

وساهم الشعراء في المغرب الإسلامي أيضا كما يذكر المؤرخون، في دورة الصراع السياسي، كالإطاحة بدولة الأغالبة والتبشير بحركة المهدي الذي أسس الدولة الفاطمية، مثل الشاعر محمد بن رمضان، الذي قال بهذه المناسبة:

فَهَذَا أوان الحق قد حان حينه وَدَولَة أَهل البَغي آنَ زَوَالهَا[2]

ولما تربع الفاطميون على العرش واستحكموا بالغ بعض الشعراء في مدحهم إلى حد التأليه وهي سابقة لم يبلغها شاعر من قبل.

ومع توالي الدويلات القائمة بالمغرب الإسلامي وبلوغ عصر الضعف، تراجع دور الشعر السياسي وضعف الشعراء في قوله وبلوغ مقاماته التي بلغها السابقون. وتعد الفترة العثمانية التي تمتد من نهاية القرن الثالث عشر حتى بداية القرن التاسع عشر عصر ضعف وتقهقر للآداب والثقافة والفنون عامة والشعر بوجه أخص.

ثالثا- الشعر السياسي في السلطنة العثمانية:

يصنف مؤرخو الأدب العصر العثماني عموما ضمن خانة عصر الضعف، الذي يمتد من سقوط بغداد سنة 1258 إلى غاية سنة 1798 بداية عصر النهضة العربية، وتميزت الثقافة والأدب خلال هذه المرحلة بالركود والجمود، بسبب اضطراب الأحوال السياسية وتردي الواقع الاقتصادي والاجتماعي، وعدم تقدير الناس للأدب والشعر والفنون عامة. وقد وصف أحد الشعراء هذا الوضع بقوله:

---

[1]- المرجع نفسه ص 22.

[2]- موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، الشركة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر، 1979، ص 228.

أَسَفي على الشعراء إنهم على حال تثير شَمَاتَةَ الأعداء[1]

وبالرغم من ذلك فقد نبغ في هذا العصر مجموعة من الشعراء الفحول الذين أثروا خزانة الأدب منهم ابن الوردي (ت749هـ)والبوصيري (ت1296م) صاحب الهمزية والبردة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم وصفي الدين الحلي –ت750هـ – الذي عاصر غزو التتار للبلاد الإسلامية فسخر شعره يدعو للمقاومة والجهاد ومما قاله في هذا الشأن:

لا يمتطي المجدَ من لم يركبِ الخطرا ولا ينالُ العلى من قدمَ الحـــذرا

ومن أرادَ العلى عفواً بـــلا تعبٍ قضَى ولم يقضِ من إدراكِها وطرا

وعايش شعراء عصر الضعف محن الأمة الإسلامية فانحسرت أغراض الشعر وتدنت قيمته الفنية، وعجز الشعراء على استنهاض الهمم شأنهم في ذلك شأن النخب الفكرية والثقافية، ومن أبرز الصور الشعرية السياسية التي صورت بروعة وجمال بعض مآسي المسلمين، مرثية سقوط اشبيلية بيد الإسبان وما تلاها من نكبات لأبي البقاء الرندي، والتي يقول في بعض أبياتها:

لِكُلِّ شَيءٍ إذا ما تَمَّ نُقصـــانُ فَلا يُغَرَّ بِطيبِ العَيشِ إنســانُ

دهى الجزيرة أمرٌ لا عَزاء لـــهُ هَوَى له أحدٌ واهدّ ثهـــلانُ[2]

أَصَابَهَا العينُ في الإسلام فَارتَزَأَتْ حَتّى خَلَتْ منه أقطارٌ وبلـدانُ

فاسأل بَلَنسيّة ما شأن مرسيّـــة وَأينَ شَاطبَة أم أين جيـــانُ

وأين قرطبةُ دار العلوم فكـــم من عالم قد سما فيها له شـــأنُ

يا غافلاً وله في الدهرِ موعظـــةٌ إن كنت في سنةٍ فالدهرُ يقظانُ

---

[1]– القصيدة للشاعر الأندلسي ابن نباتة المصري منتخبة من الموقع:
http://www.adab.com/modules.php?name=Sh3er&doWhat=shqas&qid=57649

[2]– أحد وثهلان جبلين يضرب بهما المثل في الشموخ والقوة الأول يوجد بالمدينة المنورة والثاني بنجد.

وكان لوفاة السلاطين الأقوياء وقعا كبيرا على الناس فخلدهم الشعراء بالذكر، كالسلطان سليمان القانوني الذي سقط في إحدى المعارك شهيدا فرثاه المفتي الشاعر أبو السعود أفندي في قصيدة مؤثرة، ولما سقطت أدرنة رثاها الشعراء وشبهوها بالأندلس، وذكروا انتهاك حرماتها على يدي البلغار، يقول الشاعر أمين ناصر الدين:

وقفْتُ بفكري في أدَرْنَةَ وقفـــةً ... وبي من شُجُونٍ مثلُما وُوري الزندُ

تذكرني آثارُها زمنا خـــــلا ... وللتُّرك ظلٌّ في البسيطة ممتَـــــدُ

فلا كان يوم فيه أضحتْ أدرنةٌ ... ومن هبَوات الحربِ آفاقها رَبَـــدُ

يَطُوفُ بنُو البلغار في جنَباتِها ... ويدخلُها وفدٌ ويبرحُها وفـــــدُ

تكاد قبورُ الفاتحين لما جـــرى ... تَصَدَّعُ حزنا والمعاقلُ تنهـــــدُّ

رابعا– واقع الشعر السياسي في إيالة الجزائر:

كانت إيالة الجزائر جزء من السلطنة العثمانية تقاسمت معها جل مظاهر الضعف والانحطاط في الأدب والشعر والثقافة بصورة عامة ففي ميدان الشعر يرى أبو القاسم سعد الله رحمه الله أن الشعر في العهد العثماني ما يزال مهملا لم يتم جمعه وتحقيقه ودراسته، بالرغم من وجود عدد كبير من الشعراء الفحول[1] الذين ظهروا في هذه المرحلة منهم أبو سعيد المنداسي[2]، وابن

---

[1]– أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي الجزء الثاني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1958، ص 247.

[2]– أبو سعيد المنداسي أبو عثمان أصله من منداس قرب مدينة غليزان الجزائرية ومن قبيلة سويد نشأ وترعرع بمدينة تلمسان ثم هاجر إلى المغرب الأقصى وتقرب من ملوكه العلويين منهم خاصة مولاي اسماعيل 1672–1727 الذي صار خليله وجليسه، نبغ في الشعر الموزون وفي الشعر الملحون ويقال أنه كان وراء بروز الشعر الحوزي ذي الطابع الغنائي الذي انتشر في غرب الجزائر والمغرب الأقصى. ذكره دالفين في المجلة الاسيوية بأمير الشعراء توفي سنة 1677، انظر

DELPHIN (G.) les séances d'el-Aouali in journal asiatique recueil et mémoireet de notice relatifs aux études orientales public par le société asiatique 11 série tome 04 Earnest le roux 1914 p371.

علي[1]، وابن عمار، والمقري، وابن حمادوش، والمنقلاتي[2]، وابن سحنون وغيرهم، وقد وقع أهل المغرب في ما نبه إليه ابن خلدون أنهم أضاعوا رواية أشعارهم وأخبارهم فأضاعوا أنسابهم وأحسابهم[3].

ولم تكن البيئة العثمانية في الجزائر تساعد على ولادة الأفكار أو قول الشعر وفنون التعبير الأخرى، ويمكن رسم ملامح هذه البيئة الثقافية والاجتماعية في ما يلي:

- ركود فكري شبه شامل نتيجة إهمال الاجتهاد والتجديد في نظم الشريعة الإسلامية والاكتفاء بما هو كائن.
- استطباع التعليم الأهلي بالصبغة الدينية فقد كان الأطفال والطلبة يتوجهون نحو العلوم الدينية والشرعية على حساب علوم الأدب وفنونه المختلفة[4].
- ضعف مؤسسات الدولة التي ترعى شؤون الثقافة وانحسارها في جانب العبادات والنوازل المرتبطة بها.
- عدم استقرار المجتمع الجزائري في هذه المرحلة وغياب نواة اللحمة التي تجمع الريف بالمدينة وتصنع بالتالي أجواء الإبداع الفكري والمنافسة الأدبية بتقاسم الأدوار بصورة طبيعية.

---

[1]- ابن علي الفقيه والعالم الحنفي المشهور بن الشيخ محمد بن علي بن محمد المهدي الجزائري الحنفي تولى خطة الفتوى سنة 1150هـ ومكث بها نحو 20 سنة كان حيا سنة 1751 يقال انه عزف عن التأليف لوجود ما يكفي الفقهاء من كتب ومؤلفات. صالح بويشيش المدارس الفقهية في الجزائر ص 147.

[2]- المنقلاتي: خطيب وشاعر ولغوي جزائري عاش في العهد العثماني انظر ترجمته في تاريخ الجزائر الثقافي لأبي القاسم سعد الله.

[3]- ابو القاسم سعد الله المرجع السابق ص 247.

[4]- محمد بن عبد الكريم الجزائري باحث ومحقق ومؤرخ جزائري له العديد من الأعمال الأكاديمية التاريخية والتربوية والفكرية التي نشرت.

- حالة الفقر والعوز التي كانت مخيمة على السكان تصرفهم عن التذوق لشؤون الأدب والشعر فمعظم الناس كانوا يكدون طوال يومهم للحصول على لقمة العيش لهم ولعيالهم[1].
- حالة الخطر والهستيريا[2] التي كان يعيشها الناس بفعل التحرش الغربي بالسواحل الشمالية للمغرب الإسلامي والذي بدأ من قبل سقوط غرناطة سنة 1492 واستمر إلى غاية احتلال الجزائر سنة 1830، مما لم يسمح بالعناية بالأدب والفنون والثقافة.
- انصراف الحكام الضعفاء نحو الترف واللهو والمجون فأكثروا حولهم القيان والمغنيات، وأغدقوا لهن العطاء، فانحسرت أعمال الخير والبناء والتشييد التي تلهم الشعراء والأدباء، خاصة منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي.

ويرى محمد بن عبد الكريم الجزائري أن الأدب في الجزائر العثمانية أصبح شاذا وأشذ منه شذوذ الأدباء والنبغاء، ويرجع عامل ضعف الأدب والشعر إلى كون الحكومة التركية أعجمية اللسان لا تفقه شيئا مما يقوله الشعراء والأدباء[3] ولا تحسن سوى صناعة السلاح وأدوات الحرب لأنها كانت في حرب مستمرة مع دول أوروبا[4]

---

[1]– بن ميمون (محمد الجزائري)، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، (ش.و.ن.ت.)، الجزائر، 1972، ص57.

[2]– صور لوجيبه دوتاسي هذه الحالة في كتابه حيث يقول:" كل سكان مدينة الجزائر ترك عرب أو بربر كانوا يساهمون بحذر في حراسة السواحل من أي عدوان مسيحي، وعندما يلمحون أية سفينة تقترب من الشواطئ كان الجميع يهبون لإعلام سكان القرى والدواوير المجاورة وتتعالى الصيحات "المسيحيون، المسيحيون" وما هي إلا لحظات حتى يتجمع آلاف الرجال متسلحين بالهروات والرماح وكان كل ذلك يتم في غالب الأحيان قبل أن يعلم الداي بالأمر" انظر

Laugier de Tassy. Histoire du Royaume d'Alger, Henri du Sauzet, Amsterdam. P342

من موقع ttp://www.algerie-ancienne.com/livres/histoire/histoire2.htm

[3]– محمد بن عبد الكريم، المقري وكتابه نفح الطيب، دار مكتبة الحياة لبنان، بدون تاريخ، ص 42.

[4]– بن ميمون (محمد الجزائري)، المرجع السابق، ص 56.

لقد كانت بواعث الأدب بصورة عامة والشعر خاصة، قليلة وضعيفة التأثير مما أدى إلى انحسار الأغراض الشعرية التي صارت لا روح فيها، واقتصرت على جانبين اثنين هما:

- الجانب الديني وما دار في فلكه من إحياء مواسم دينية واحتفالات بالمناسبات المختلفة كالمولد النبوي الشريف وموسم الحج ومواسم الحصاد وجني الثمار.
- الجانب السياسي ويضم الإشادة بأعمال البناء والتعمير والحروب والانتصارات التي كان يحققها الحكام على "الكفار" بصورة عامة.

بل إن شح الأغراض الشعرية ضيق الأفق على الشعراء، يقول ابن زاكور الفاسي أن الشعر صار أسلوبا مستخدما في الحوار بين الفقهاء والعلماء والمفتين، في ضرب من المفاكهة والملاطفة والترويح بينهم وقول الألغاز' وفي هذا الإطار سأل ابن زاكور الشيخ أبا عبد الله سيدي محمد بن المولى سيدي عبد القادر عن معنى قول النبي :" من باع جلد أضحيته فلا أضحية له" فقال:[1]

يا أيها العالمُ الصدرُ الذي شرُفت ... فاس به وازْدَهَرَتْ بالعلم والرشد
إنّا نُريدُ الجواب منكم كـــــرما ... يَرْوي ويُغني عن اليَنبوع والنّمَـد
عن قول خير الورى المختار سيدنا ... عليه أسنى صلاة الواحد الصمد
في جلد أُضحية ما أن لبائعـــه ... أضحية أو كما جاء بالسنـــد[2]
هل الثواب نفي أو الكمالُ فَقَـدَ ... أم صحة جملة يا مبتغي خُلُـد[3]

فأجابه الشيخ المذكور بقصيدة أخرى شارحة للمسألة.

ولعل من أهم قصائد الشعر السياسي التي قيلت في العهد العثماني تلك التي حملت نداء الاستغاثة" الشعري والتي وجهها أهل الأندلس إلى السلطان بايزيد

---

[1]- ابن زاكور الفاسي ،نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان، مطبعة فونتانا، الجزائر، 1902. ص44.

[2]- ابن زاكور الفاسي، المرجع نفسه، ص45.

[3]- المرجع نفسه، ص46.

[4]- تعددت قصائد الشعر التي تحمل نداء الاستغاثة من سكان الأندلس إلى امراء وملوك العالم

الثاني (886 . 918هـ/ 1481 . 1512م)، وذلك حوالي سنة 1505م، وهي تلخص الأوضاع الصعبة التي ألمت بمسلمي الأندلس بعد سقوطه بيد الإسبان عام 1492م، وتبين القصيدة بالرغم من ضعف بنيتها وركاكة العبارات المستعملة وغياب أدوات الصناعة الشعرية فيها من بيان ومحسنات بديعية، مدى ما بلغه الأسبان من الحقد والكيد بالمسلمين وعزمهم الكامل على محو كل آثارهم في البلاد، ومما جاء فيها:

سلامٌ كريمٌ دائمٌ متجـــــــــددُ أخص به مولانا خير خليفـــة

سلام على مولانا ذي المجد والعلى ومن ألبس الكفار ثوب المذلـة

سلام عليكم من عبيد تخلفـــوا بأندلس بالغرب من أرض غربة

غير أن عجز السلاطين العثمانيين على مدّ يد العون لإخوانهم في اسبانيا دفعهم لهجرة البلاد، وشجعهم على ذلك صدور عدة فتاوى من طرف فقهاء المغرب[1]، أكدت على وجوب الهجرة.

خامسا– قضايا الشعر السياسي.

1. مقاومة العدوان المسيحي الغربي: وصف دو قرامون وضع الجزائر في العهد العثماني " لقد صارت الجزائر إحدى قلاع الإسلام والشعراء والأدباء يحيون بطولاتها التي يلعنها المؤرخون الإسبان فيقول صاحب كتاب الزهرة النيرة[2]:" المجد لك يا جزائر التي لوث

الاسلامي كبني مرين في المغرب والحفصيين في تونس والمماليك في مصر وسلاطين الأتراك

[1]– الفتاوي ألف الونشريسي من أفضل ما الف كتاب اسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وضعها في رسالة أجاب فيه على الفقيه الغرناطي محمد بن قطبة في شان من بقي من المسلمين في الأندلس تحت حكم النصارى أفتى فيها بمعصية من بقي بدار الكفر ولم يهاجر بعد تغلب النصارى على داره وقال فيها بقتل من نزح من دار الايمان الى دار الكفر لان كليهما في اعتقاده مرتكب كبيرة وقد علق على الموضوع حسين مؤنس ورد للإستاد عبد القادر العافية ص 279 كتاب المجلة المغربية الكبير.

[2]– ابن رقية التلمساني مؤرخ جزائري عاش أواخر القرن الثامن عشر الميلادي له تأليف ذكر فيه أهم المراحل التي مر بها تاريخ الجزائر منها مجيء الاخوة بربروس حملة شارلكان سماه الزهراء النيرة ترجمها إلى الفرنسية ألفونس روسو تحت عنوان:

chroniques de la régence d'Alger .traduites d'un manuscrit arabe intitulé el-zohrat-el-

تراك دماء الكفرة"، فيجيبه هايدو:"يا جزائر يا ملجأ المتوهمين وأزمة العالم، كم يا ترى من الوقت يستطيع الأمراء المسيحيون الصبر على غطرستك وعجرفتك"[1].

ومن أوائل الشعراء الذين تغنوا ببعض حلقات الصراع بين العثمانيين والأسبان، الشيخ الأكحل بن خلوف الشهير بالأخضر[2]، الذي صور الصراع بين خير الدين والأسبان حول مدينة وهران في قصيدة طويلة، ذكر فيها مختلف المشاهد الحربية واستعدادات الطرفين للمعركة والتحام الجيشين والقبائل المشاركة إلى جانب كل طرف، ويفيدنا شعره كثيرا في المعرفة الجغرافية للمدن والقرى والشعاب والأودية وفي أخذ صورة تقريبية للبنى الاجتماعية مثل القبائل المختلفة التي كانت لها صلة بالحرب، والعوامل المؤثرة في تغيير ولاءاتها السياسية والدينية، ومما جاء في هذه القصيدة:

يَا سَايلني عن طَرّاد الـــــروم ... قصة مَازَافْرَان[3] معلومـــــة

يا سايلني كيفْ ذا القصـــــة ... ما بين النصراني وخير الديـــن

تْرَى سْفُون الروم مُحْترصـــــة ... صَّبْحُوا في المنا أعداء الديـــن[4]

ارْفَع رَاسَكْ يا علي المفهـــوم ... يا سيد الحَسَنين وفاطيمـــــة

شُوف بْلادنا كيف رَاهَا اليـوم ... تَسْبيهَا الكفارْ الظالمـــــة

قصة مازاغران معلومة

من بني راشد وال سويـــــد ... وَافْرَاسينْ انْطَحْ عبد الـــــواد[5]

يا مغراوة[6] تْحَزْمُوا لَلْكيـــــدْ ... مَنْكُمْ خَلْقَتْ اَسْلَاطينْ وَجْـوَادْ

---

nayerat, traduit par Alphonse Rousseau,Alger, imprimerie du gouvernement 1841.

[1]-De Grammont Henri-Delmas , Histoire d'Alger sous la Domination turque 1515-1830 , Edition Bouchene , Paris, 2002, p02.

[2]– الشيخ مخلوف مدفون بمدينة مزيلة 60 كلم شرق مستغانم.

[3]–مازافران وفي قراءة مازاغران قرية تقع قرب مدينة مستغانم ببايلك الغرب الجزائري، وقعت عندها معركة .

[4]– بن سحنون الراشدي، المرجع السابق، ص24. 25 لمزيد من الاطلاع على القصيدة يرجع إلى المرجع.

[5]– عبد الواد قبيلة صغيرة قرب قلعة بني راشد نواحي مدينة معسكر.

[6]– قبيلة مغراوة البربرية قديمة ضاربة في التاريخ تنتسب لخزر بن حفص بن صولات بن وزمار بن

كما احتفظ المؤرخون بقصيدة شعبية مطولة تغنى بها الجزائريون في مختلف المناسبات وتحكي قصة الحرب التي كانت بين إيالة الجزائر والدانمرك، ومما جاء فيها:

بَسْمْ الله نَبْدَا عْلَى وْفَا هَذي القصة تْغَيّانَا

يَا رَبّ يا عالم لخْفَـــا اهْزَمْ جيشْ اعْدَانَا[1]

ولمؤلف كتاب ابتسام الثغر الجماني مساهمة شعرية يدعو فيها إلى الجهاد ويحث الهمم لجمع الكلمة وتوحيد الصف ضد العدوان المسيحي الاسباني على بلاد المسلمين يقول في بعض أبياتها:

أيا أمة غابت عليها لحومها وأصبح داعي المشركين يسومها

تواكل أمر الدين أصحابها وما نفعت أهل العلم علومهـا

ألا تذكروا أمر الجهاد فانه به ملة المختار صح سقيمهـا

متى تركته المسلمون تهاونا به كثرت أحزانها وهمومهـــا[2]

وسعى الشعراء إلى توحيد صفوف المسلمين في مواجهة الإسبان، ودعوة القبائل المتعاونة معهم إلى الرجوع إلى الأمة وإلى الدين قال الشاعر ابن المحلي في هذا الصدد موجها خطابه لقبائل بني عامر الموالية للأسبان:

فمن مبلغ عني قبائل عامـــر ولا سيما من قد ثوى تحت كافر

أيا معشر الاسلام أين فحولكم أما ابصروا في السبت عبد الحرائر

وتحت اليهودي غادة عربيـــة يعالجها الخنزير فوق المزابـــــر[3]

صقلاب بن مغراو المغراوي وقد كانت حليفة للأمويين بالمغرب الأوسط.

[1]– المدني احمد توفيق محمد عثمان باشا: داي الجزائر 1766–1791، المؤسسة الوطنية للكتاب: الجزائر، 1986، ص144.

[2]– بن سحنون الراشدي، المرجع السابق، ص162.

[3]– أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ص 272.

وقال محمد بن سليمان[1] في مرحلة الصراع لاسترداد وهران وهو يضمن بين طياته شعره توجيهات سياسية ودينية للمسلمين للكف عن التعامل مع النصارى والتعاطف معهم، حيث قال:

فَكيفْ يا قْبَايَلْ العُرَبَـــانْ عافاكم الله من الشيطان
تَخْدْمُوا هارون في وهـــران يهوديا ملعونا في القـرآن
مع ديك نصراني كافر يَعْبُدُ يا ويلاه عُودْ فانـــــي

1. التنويه بأعمال القادة وأمجادهم: عمل الشعراء في تلك الفترة ما بقدرتهم للتنويه بأعمال القادة وفتوحاتهم العسكرية وأعمالهم العمرانية ومنجزاتهم الثقافية والاجتماعية، ولم يكن هذا ديدن شعراء الجزائر فحسب، إذ كان شعراء تونس والمغرب يطنبون في مدح قادتهم والرفع من قيمة أعمالهم ومنجزاتهم بالرغم من سيرتهم السيئة أحيانا، ففي تونس نال علي باشا باي- 1100- 1169- مع سوء سمعته وامتهانه للخاصة وإضراره بالمملكة بمظالمه، الكثير من المدح إذ يروى أنه شرح تسهيل ابن مالك النحوي شرحاً وافيا وأعكف الناس على قراءته بجامع الزيتونة مدة دولته، وقرظه سائر علماء عصره. وكان يعده البعض في العلماء وقال فيه الشيخ أبو الحسن علي البارع:

لله شرح للأمير موضـــــح لم يتصف بصعوبة التلويـــح
سهل التناول بالخفاء مصـرّح قد فاق في التسهيل والتصريح
فإذا افتقرت إلى كتاب موضح فكتابه المغني عن التوضيـــح[2]

---

[1]- المرجع نفسه، ص 272.

[2]- محمد بن عثمان بن محمد السنوسي، مسامرات الظريف بحسن التعريف المؤلف، كتاب اكتروني، ص03.

وقال في وفاته كاتبه الشيخ محمد الورغي راثيا:

مضت دولة الباشا عليٌّ كأنه ... من الدهر يوماً في البريةَّ ما عاشا

أتته المنايا وهو في عُظم قـوة ... وجيش كثيف مثله قط ما جاشا

فصار دفيناً بعد ما كان دافناً ... فقلت وقد أرخته: دفن الباشـــا

وقد ذكر خبره من طرف المؤرخ الشيخ محمد ابن يوسف الحنفي الباجي[1] في تاريخه المسمى. "المشرع الملكي، بدولة أبناء علي تركي"[2].

ويذكر أبو القاسم سعد الله أن الرحالة ابن حمادوش كان له اتصال بملوك المغرب مادحا بعضهم قصد الحصول على الأعطيات لكنه لم يحظ منهم بشيء، ومنعه الحجاب من الدخول عليهم، فقال مبررا هذا الموقف:"أغناني الله عن لقياه" وفي أخرى قال "لما رأيت غلظ حجابه مسكتها عندي"[3] ويعني بذلك قصيدة الشعر.

وكان لوفاة القادة أصحاب البر وأعمال الخير وقعاً على السكان فيتحرك في رثائهم نيابة عنهم الشعراء والأدباء، مثلما فعل الزياني في رثاء القائد بشير أغا الباي مصطفى بوشلاغم ومما قال فيه:

هنيئا لك الجنان لا السعـــــير ... يا كافل الأرامل يا بشير

لقد عشت سعيدا في رغد عيش ... وفزت بالشهادة يا أميـر[4]

---

[1]– المؤرخ الشيخ محمد ابن يوسف الحنفي الباجي مؤرخ تونسي عاصر بايات تونس في الفترة الممتدة من 1130 إلى 1145 هـ له كتاب "المشرع الملكي، بدولة أبناء علي تركي" . أرخ فيه لعلي باشا وما وقع من صراع بينه وبين إخوته وأبنائه

[2]– محمد بن عثمان بن محمد السنوسي، المرجع السابق.

[3]– أبو القسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ص273.

[4]– بن ميمون (محمد الجزائري)، التحفة المرضية المرجع السابق، ص62.

وقال الراشدي يمدح الباي محمد الكبير بعد فتح وهران الثاني

أَسَدٌ صال صولة فأبـــادت من بني الكفر جانبا وجناحا
وأراع قلوبهم فتلاشـــــى صبرُها وأبان منها الرّاحـــا
جاء من بعدهم فحاز عليهم أول الذكر والعُلا والسّمَاحَا[1]

ويقول أيضا مبرزا إعجابه وتعلقه بهذا الباي الفذ محمد الكبير والذي كان من شعرائه المقربين:

وإذا كان ذنبي في هواك محبتي فما أنا من ذنبي مدى الدهر تائب[2]

ولم يحظ الباي محمد الكبير بالمدح والثناء فقط لمساهمته في تحرير وهران بل بفضل حسن إدارة البلاد وتدبير شؤون السكان وتحقيق العدل فأُعجب بسيرته العلماء والفقهاء والشعراء وراحوا يتنافسون في مدحه ومن هؤلاء القرومي حيث مدحه في قصيدة لما بنى مسجد معسكر، مطلعها:

لما التقيتُ بوافدِ الحسنِ البهـــيِّ يُزْجي المطايا مَغْرِبا في عسكـــر
عجبا له من مسجد في الأرض قد حاكى السماء تطاولا في الفخـر
وَابْقَ سعيدا خاتِمَ العلياءِ قـــــد كَمُلت خِصَالُك فافتخر ثم افخر[3]

ومدحه الشيخ القرومي[4] في قصيدتين الأولى بمناسبة فتح الأغواط[5]، وقال في بعضها:

---

[1]- ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني، المرجع السابق ص313.

[2]- المرجع نفسه ص313.

[3]- المرجع نفسه، ص 130.

[4]- الحاج احمد بن السيد محمد بن علال القرومي شاعر شعبي جزائري عاش في الفترة العثماني ارجع الى تاريخ الجزائر الثقافي لابي القاسم سعد الله للمزيد من المطالعة.

[5]- سجل هذه الملحمة أحمد بن هطال التلمساني في رحلته المعروفة بعنوان رحلة الباي محمد الكبير الى الجنوب الصحراوي من تحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري.

لقد أنجز الآمال وعْدا من النصر كما أبرز الإقبال ما كان في القدر

وأهدى فؤاد الفتح عذراء بلـــدَةٍ مثقلةِ الأردافِ في الحُلل الخُضـــر

والثانية في بناء مسجد معسكر ومما ورد فيها قوله:

ألق عصاك وفُكّ رَحْل ركائبـــي بالمسجد المنشَئ بأم العسكـــر

المحكم التشييد في شرفاتـــــه فَتَرَاهُ يحسن كالرياض الممطـــر

فتراه أصفر فاقع في أحمر قـــان وأبيض ناصع في أخضـــــــر

عجبا له من مسجد في الأرض قد حاكى السماء تطاولا في المفخر[1]

2. **احتلال وهران وتحريرها**[2]: شكلت مأساة وهران في تاريخ الجزائر العثمانية مصدر إلهام للكثير من الشعراء، وكان الشيخ محمد التواتي من الأوائل الذين اتخذوا من الشعر وسيلة لاستنهاض الهمم والدفاع عن وهران قبل انضمام الجزائر للخلافة العثمانية، بالرغم من أسلوبه الركيك وتفكك تركيبة الجمل، ومن شعره في هذا المضمار:

يا أهل وهران انظروا نظر شفقة لبلدتكم من قبل أن تَتَرَدّتي

وقبل مجيء المنشآت ببحرهـــا وأي قلوب عندها مُسْتقـرتي

ولا تَكِلُوهَا غيركم ولئن يكـــن فما غائب مثل المقيم ببلدة[3]

ويعد فتح وهران الأول والثاني - الذي هو حلقة من حلقات الصراع مع الإسبان- من أكثر الأحداث التي استنفرت الشعراء لقرض الشعر والإشادة بأصحابالفتح ومعرفة أحوالهم وبطولاتهم كما بينت من جانب آخر هذه الأشعار مدى استماتة الإسبان وعزمهم على البقاء الأبدي في الجزائر.

---

[1]- أحمد بن هطال التلمساني المرجع السابق، ص 81.

[2]- في سنة 911هـ سقط المرسى الكبير بيد الإسبان وفي سنة 914هـ سقطت وهران ثم افتكها الباي محمد بوشلاغم منهم سنة 1119هـ وفي سنة 1143هـ استردها الإسبان بعد 24 سنة، ثم عاود الباي محمد الكبير تحريرها نهائيا سنة 1792 م.

[3]- بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني المرجع السابق، ص15.

– **فتح وهران الأول 1708:** فتحت مدينة وهران على يد الداي محمد بكداش، سنة 1708، بعد ما مكثت بيد الأسبان نحو مائتين وخمس سنوات، وقد ألف محمد بن ميمون الجزائري كتابه التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تخليدا لهذا الانتصار واحتفاء بالداي.

ونوه الفقيه أحمد البوني–1063هـ /1653م–1139هـ /1726م– في درته المشهورة بهذا العمل فقال بالمناسبة:

وفُتحتْ على يديهِ وهرانُ فَكَمُلَ المجْدُ له والبرهان

واغتنم البوني هذا الحدث البهيج والمتمثل في عودة وهران إلى حظيرة الإسلام في رفع شكوى للداي محمد بكداش ينبهه إلى ما آلت إليه مدينته بونة من ضعف وهوان وتراجع ومما جاء في قصيدته:

يا حاكم الجَزائـــــر يا أنْس نَفْس الزَائـــرِ
أريدُ أنْ أخْبرَكُـــــمْ أدَامَ رَبِّي نَصْرَكُـــــمْ
بحَالِ هَذي القَرْيَـــةِ بِالصِّدْق لاَ بالفريـــةِ
خُرِّبَتِ المسَاجِـــــدُ وقلَّ فيها السَّاجِـــدُ
والشَّرْعُ فِيها باطِـــلُ والظلمُ فيها هَاطِـــلُ

وقال أيضا يدعو لمحمد بكداش

مَتِّع عِبادَكَ بالذي أمرتـــه فِينَا بِلا ضُرّ ولا نقصـــان
وهو الأمير محمد ذو المجد والأسرار والألاء والإحسان[1]

ويذكر صاحب منظومة الحلفاوي التلمساني في تاريخ مدينة وهران وفتحها الأول على يد الداي بكداش والباي مصطفى بوشلاغم سنة 1119هـ أبياتا شعرية جميلة في وصف هذا الحدث وتصوير مرارة العدو وهو يجر أذيال الخيبة فقال:

---

[1]– بن ميمون (محمد الجزائري)، التحفة المرضية المرجع السابق ص175.

وارتحل الكفار بالصليـــــب تحدو بهم عواصف الجنـوب
والحزن في أحشائهم قد استكن من خيبة القصد وفرقة الوطن
وانقطعت علائق التثليـــث والاعتقاد الفاسد الخبيـــث[1]

وفي نفس المناسبة يقول الشاعر محمد النقيري أحد الشعراء المحليين أرجازا معبرا عن ابتهاجه وسعادته لهذا الحدث وتأريخه له شعرا فقال:

يا سائلا عما بوهران ظهـــر من أَخذَهَا وفَتْحَهَا كَمَا إنْتشر
أخذها الكفار بالثبـــات فيما رويناه عن الثقـــــات
سنة أربع وعشرين مضـــت من بعد تسعمائة قد كَمُلَـــتْ
فمائتان مع خمسة سنيـــن عِدّةُ مُكْثِهَا بأيدي الكافريـــن
ثم بدا العزم من الإلـــــه وجاءنا الفتح ونصـــــر الله
فَفُتِحَتْ سنة تسعة عشـــر ومائة من بعد ألف تُعتبـــر
في سادس العشرين من شوال صبيحة العشرين خذ مالـــي
محمد بكداش فخر الدولـــة وحسن[2] صهر عالي الصولـــة[3]

– **فتح وهران الثاني 1792**: وبعد نحو خمس وعشرين سنة وقعت المدينة مرة جديدة بيد الإسبان حتى افتتحها للمرة الأخيرة الباي محمد الكبير سنة 1792، وكان لهذا الفتح أثرا كبيرا على الشعراء والكتاب والمادحين، فكان ابن سحنون الراشدي من الذين برعوا في قول الكثير من القصائد في مدح الباي، ومما قال فيه:

طَهّرتَ هذا القطر من دون الردى ورفعته عن سائر الأقطـــار
وَسَعَيْتَ للرحمن سعيا صادقـــا فَجَزَاكَ عنه بخير عُقبى الدار[4]

---

[1]– أحمد بن سحنون الراشدي، المرجع السابق، ص 450.

[2]– هو حسن أوزون صهر الداي محمد بكداش الذي أبلى بلاء حسنا في عملية تحرير وهران الأول سنة 1708

[3]– احمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير باي الغرب إلى الجنوب الصحرواي، تحقيق محمد بن عبد الكريم، عالم الكتب، القاهرة، 1969. ص18 وما بعدها.

[4]– أحمد بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني، المرجع السابق، ص 85.

وفي قصيدة أرجوزة يجنح فيها الراشدي للمبالغة في وصف الباي محمد الكبير في تحكم بمن سبق من قادة الكفر والغزو وفي أسلوب طريف فيقول:

هو الذي أهدى للإسلام عقيلة بعيدة المرام

ولو دنا من سورها هُولاكو لَعمهُ وَجُندَهُ الهلاكُ

وَ جَدَّهُ جنكيز لو أتاها لَجُنَّ في أرجائها وتَاهَا[1]

ويقول في قصيد أخر منوها ببراعة الباي العسكرية، واصفا المعركة والقتال الشديد الذي تعرض له الإسبان في لوحات فنية معبرة، رغم بنيتها الأدبية الضعيفة أساء فيها الشاعر اختيار المفردات والصيغ البيانية. ومما جاء فيها:

فكم بنى في الثغر من أشراك لأهل وهران ذوي الإشراك

وهي إذ ذاك بلاد كفر لن يحظ من يقصدها بِظَفْرِ

فرمي القُرات بصواعق الضرر مثل الجحيم حين ترمي بشرر[2]

كما مدح أبو راس الناصري-1150 - 1238 هـ - الباي محمد الكبير فقال:"

يشرى لنا بلغنا غاية الإرب بفتح وهران ذات العجب والعجب[3]

ويذكر ابن هطال[4] أن الباي محمد الكبير كان مولعا بالشعر ومكرما للشعراء مبالغا في إحسانهم فقد منح القرومي مائة محبوب[5] ذهبي وكسوة و 50 محبوبا[6]

---

[1]- أحمد بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني، المرجع السابق، ص 86.

[2]- أحمد بن سحنون الراشدي، المرجع نفسه، ص184.

[3]- محمد المهدي شغيب بن علي، أم الحواضر في الماضي والحاضر، مطبعة البعث، قسنطينة، 1980 ،ص200.

[4]- صاحب كتاب رحلة الباي محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي كان كاتبا ومستشارا للباي محمد الكبير باي وهران ومبعوثه الخاص في الخارج أرسله إلى السلطان المغربي لشراء الأسلحة استشهد في معركة فرطاسة الشهيرة التي دارت بين الدرقاويين وقوات البايلك سنة 1219هـ

[5] - المحبوب هو عملة محلية استخدمت في العهد العثماني تسك من الذهب الخالص.

[6]- ابن هطال المرجع السابق ص26.

وعند عودة الباي من حملته السابقة الذكر إلى وهران صنع احتفالا بهيجا استقبل فيه شيوخ القبائل والأدباء والشعراء وعامة الناس، من مختلف الفئات والطبقات وقال في ذلك أحد الأدباء قصيدة مرتجلا:

بدأت بحمد الله ومعرض الثنـــا ... وفي الافتخار بهجة وثَنَـــاءْ
ومن خصه الرحمن بالمجد والعـــلا ... وحاز الفخر والمعالي سَنَـــاءْ
فإن رمت حصرا في كماله فارتجع ... فإن البحور لم تزلهـــا دلاءْ [1]

3. **الشعراء ونكبة احتلال الجزائر**: ومما يكاد الجزم به أن الشعر في أواخر العهد العثماني ازداد سوء من الناحية الأدبية، ومن ناحية الأغراض التي يتناولها، وأصبح لا يعبر بصدق عن حرقة الوجدان وأصالة الانتماء وتحول إلى شعر للتكسب والتقرب من الإدارة وجهاز السلطة، فضلا عن احتلال الشعر الشعبي خاصة الغنائي منه حيزا كبيرا من حياة الناس، ومرت نكبة سقوط الجزائر بيد فرنسا سنة 1830 بدون ما تحدث لوعة عند شاعر فحل يرثيها بصدق ويسجلها في التاريخ العربي والإسلامي ما عدا القليل، وكان الشاعر الفقيه ابن الشاهد[2] من الذين عايشوا نكبة احتلال الجزائر حيث حاول تصويرها وتصوير ما ألمّ بالجزائريين من نكد، دون أن ينسى أساه، خاصة مع كبر سنه وعجزه وفقدان بصره وانعدام المعين، فقال:

أمِنْ صولة الأعداء سُورُ الجزائر ... سرى فيك رعبٌ أم رَكَنْتَ إلى الأَشَرْ
لبست سواد الحزن بعد المسرة ... وعَمّت بواديك الفتون بلاَ حصْـــرِ
فآه على جهدي وما به منعــة ... وآه على دار يسود بها غيـــــري

---

[1]– المرجع نفسه، ص76.

[2]– محمد ابن الشاهد فقيه وشاعر وأديب جزائري ولد في مدينة الجزائر درس بها ثم رحل إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، واتصل بعلماء الحجاز ومصر وتونس. عمل مدرسا في جامع حسين ميزمورطو باشا، ثم حزابا في الجامع الكبير، وجامع «علي باشا»، تولى وظيفة الفتوى على مذهب الإمام مالك سنة 1778 ثم سنة 1792، وقد كف بصره في أواخر أيامه، وعاش في ضنك في ظل الاحتلال الفرنسي، انظر أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة – المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر 1983.

فيا عينُ جودي بالدموع سماحة ويا حزنُ شيِّد في الفؤاد ولا تَسْـــرِ

ويا صاح تدبير الأمور لخالقي فصبرا على عُسرٍ يبدّل بِيُسْـــــرِ[1]

ويعلق الأستاذ سعد الله على شعر ابن الشاهد بأنه من عيون ما نظم من الشعر العربي في العصر الحديث في موضوعه وروحه، وهو من أوائل الشعر السياسي الوطني[2] على حد قوله، والواقع أن القصيدة قد تضمنت العديد من الصور المحزنة والمآسي التي لحقت بالشعب الجزائري بعد 1830 لكن الشاعر لم يفلح تماما في تصويرها ضمن أسلوب أدبي راق، سواء من حيث اختيار الألفاظ والتراكيب أو استعمال المحسنات البديعية وغيرها من أدوات الشعر، فجاءت القصيدة هزيلة ببنائها وضعيفة من حيث الترابط بين جملها وغياب الانسجام.

وذكر المؤرخون شاعرا آخر من مازونة كان يدرس بإحدى زوايا العاصمة، شاهد نكبة احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830 وجاشت نفسه بقصيدة حزينة رثا بها المدينة المنكوبة، وتوفي الشاعر بعد عودته إلى مسقط رأسه مازونة بسبب ما رأت عيناه من ويلات الدمار والخراب والموت الذي أطبق على إخوانه المسلمين. وكان شعره من نمط الشعر الشعبي الملحون الذي كان له صيت كبير في ذلك الزمان وقد جاءت القصيدة التي بعنوان راني على الجزاير يا ناس حزين، غنية بالصور والحركات والألفاظ والتراكيب، التي حاول من خلالها الشاعر الكشف عن عميق حزنه بسبب هذه النكبة، وجاءت القصيدة في نحو ثلاثين بيت منها[3]:

---

[1]- ابو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة، الطبعة الثالثة، عالم المعرفة الجزائر، 2009، ص114-115.

[2]- المرجع نفسه، ص113.

[3]- بحثت عن هذه القصيدة طويلا في متون الكتب الشعرية والأدبية فلم أجدها والأثر الوحيد لها هو موقع الجلفة انفو.

لَفْرانسيس تْحرّك ليها وَخْذَاهَـــــا لا هي مِيّاتْ مركب ولا هي ميتين
بسفاين هي قرنص في البحر قباطـا كي جا من البحر بجنود قويـــين
غاب الحساب وادرق وتلف حسابها الروم جاو للبهجة مشتديـــن

راني على الجزاير يا ناس حزين

الكلب غير رْقَبْ للمرسى شافهـــا شافْ المدافع لوجهُه منصوبيـــن
بَرّم سْفَاينُه وتقدم قدامهـــا في سيدي فرج نْزَلْ ذاك اللعيـــن
سواحل البحر تْحكيلَكْ غطاوهـــا الأوطان والسهل ثم شْعاب أُخرين
لم المحَال في يوم السبت أو جَابْهَـا والسبت ماتوا شِي من المسلميـــن
المومنين فَزْعَت هي وصغارهـــا الابراج والطبابن بالمومنيـــن
هُنَا الناس تظهرْ وتْبان من خْيَازْهـــا مُوتْ لْجهاد خير من اللي حيـــين
حُور الجْنَانْ رَاهَا تْزَغْرَتْ بأصواتهـــا أبواب النعيم للأمة مفتوحيـــن
انطلقت المحارَقْ ظلت في اتخاذهـــا وتْفَرْقعُوا مْكَاحَلْهُم في اليديـــن
البُومْبة تْبيب وقراطس في يدهـــا والدوبلي يْبيب يا مسلميـــن
ماذا أبطال ماتت وخلات ديارهـــا راحوا تزوجوا مع حورات العيـــن

راني على الجزاير يا ناس حزين

على أسوارها تْتْفـــــــــانَ يْبْقَى الدَّمْ غِيرْ مْقَلّـــــــــتْ
حتى اليهود فرْحُوا لينـــــــــا وَنْسَاهُم لكلاب تْزَغْـــــــرَتْ
عْلاَشْ شَايْعة مْزَغّنْـــــــــة حتى النسا معانا حزنـــــــت

ومما ورد في هذه القصيدة من المعاني والأخبار التي تخدم التاريخ ما يلي:

- ملاحظة حالة اليأس والاضطراب التي كان عليها سكان الجزائر حين وقوع الحملة.
- كبر حجم الحملة التي غطت سفنها البحر، وكثرة الجند المنتشرين في الوهاد والسهول.
- استماتة وتفاني سكان المدينة في الدفاع عنها والموت في سبيل ذلك، حتى انتشرت برك الدم في كل مكان.

- ورود لفظ "البهجة"و"مزغنة" للدلالة على مدينة الجزائر.
- استبشار الطائفة اليهودية بوقوع مدينة الجزائر بيد الاحتلال الفرنسي وإطلاق نساء اليهود الزغاريد فرحة بالحدث، وهو ما يبين حالة الاحتقان والاستقطاب التي كانت بين فئة اليهود والأهالي.
- لجوء الشاعر لاستعمال وتوظيف القيم الدينية، لتسلية نفسه عما يلاقيه بنو جلدته، من قتل وترويع. فتارة يذكر بالإيمان وحلاوته وتارة أخرى بالجنة والشهادة وحور العين، اللواتي ينتظرن الشهداء حين يفضوا إلى ربهم.
- استعمال الشاعر بعض الألفاظ القاسية التي تعبر عن مدى الغيظ والأسف من ضياع الجزائر والعجز عن استردادها وتغيير الواقع الأليم الذي صارت إليه بعدما كانت تنعم بالأمن والأمان من مثل قوله الكلب، ونساهم لكلاب، ذاك اللعين وغيرها.

5- الشعر والثورة على الأوضاع الاجتماعية والسياسية: لم تكن الأوضاع الاجتماعية والسياسية في النصف الثاني من القرن 18 وأوائل القرن 19 مستقرة كما كانت من قبل، وقد نبه لذلك بعض الشعراء الشعبيين الذين عاشوا في هذه الفترة، ودعوا إلى اليقظة والانتباه، مثل الشاعر الشعبي المدعو الشيخ بالقاسم الرحموني الحداد[1] من مدينة قسنطينة، الذي صور الواقع المعيش بمدينة قسنطينة أوائل القرن التاسع عشر الميلادي في قصيدة من الشعر الملحون تضم 69 بيت وجاءت مشحونة بصور قاتمة عن مدينة قسنطينة في بداية القرن التاسع عشر يقول في بعضها:

---

[1]- ولد في عهد صالح باي مات ابوه صغيرا فتزوجت أمه بحداد كفل اليتيم وعلمه صناعته ومنه اخذ اسمه وسرعان ما توفي كافله فوجد نفسه يتيما فاتجه نحو محط الحشاشين بالمدينة حيث كان يستمع للشعراء الشعبيين وسرعان ما اكتسب الخبرة فنفتقت قريحته بقدرته على الحفظ والسجع وصار شيخا في الشعر الشعبي وسرد القصص والبطولات المختلفة. مات الرحموني زمن شاكر باي. انظر
A. Cour, Constantine en 1802 d'après une chanson populaire , in R.A, N0 60, 1919, pp224-230

بالقبايل راهي الخْشـــــات والشاوية كُلاّتْهُم جَـاتْ

والسوافة ذُوكْ اللازجـــات حتى مزيتـــــة زادو

مغاربة وشراقة حَفْـــلاَتْ جايين ليها بالكثـرات

فازعين ليها بثبـــــات مثل هيس جْـــرَادُو

بني مزاب[1] أقوات بالسلعات تْخَلْفِين نساهم وابنـات

وَبَعْدْهُمْ يُولدوا[2]

عام مكبرة هاي سيـــدي بالكساد وَغْلات النعمة

كيف نخبر هاي سيـــدي بالفساد في كَمَان حوما

واش تنظروا فيها هلكســت راهـــي فســـدت

ما بقات تسمى بلـــــدة

واش تنظروا في ذي الدنيـــا عـــادت عَمْيَـــا

اليهود جاءت ليهم محبـــة عـــادوا عليـــا

باللباس وقصور تدهـش

والمسلم في فم الحيـــــا يعطي الجازيـــــا

والكفر يقوي ويعرش ديننا ضعف ولى فديا لأهل العديـا

كل يوم ينسب ويَنْغَشّ كل يتقوى جُرحي هَايْ جُوحِـي

معيشتي معيشة الدّبّانـــا[3] الحُو يخدع خُوه في نيته الهموم ما يَنْطَاقُوا

الأسعار راه غْـــلاتْ وحتى أمطار الصيف ادْفاقُوا

الحرث راه صعب نَبْـــو يابس والحجر يكثـروا

واش تنظر هاي سيدي

---

[1]- يقر الشاعر في هذا الموقف بحقيقة عناية الميزابيين بالتجارة والتحكم في حركة نقل البضائع والسلع وهي عادة لا تزال إلى يوم الناس هذا.

[2]-A. Cour, op.cit., pp224-230.

[3]- الذبابة

وفي القصيدة تعداد كبير للأزمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بل حتى الطبيعية منها، يأمل من خلالها الشاعر ويومئ باقتراب موعد الحسم في النظام السياسي القائم العاجز عن التغيير نحو الأفضل.

وفي نطاق آخر لعب الشعر دورا بارزا في تأجيج العداوة للأتراك والدعوة للثورة عليهم، لسبب أو لآخر، وقد كان الشاعر سعيد المنداسي من الشعراء الذين بالغوا في هجاء الأتراك والدعوة لحربهم، ومن أشعاره في هذا الشأن قوله:

فما دب فوق الأرض كالترك مجرم ولا ولدت حواء كالترك إنسانا[1]

ودعا شعراء آخرون للثورة على الأتراك، ودق طبول الحرب، والتغني بالبطولات والإنجازات التي كانت ترافق هذا الحراك، وخير مثال على ذلك ثورة سويد[2] التي تعد من أكبر الثورات التي هزت بايلك الغرب، وعرفت في التاريخ بثورة المحال[3] ودامت أكثر من قرنين من الزمن، وتفاعل معها الشعراء منهم الشاعر بن السويكت الذي خلد ثورة سويد ويقول في هذا الشأن:

عْلَى ارهيُّو[4] وعلى جديويَّة[5] كارسين الترك بْجوف والسويد جاوا للقبيلة

---

[1]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ص259.

[2]– تعد قبيلة سويد من القبائل العربية الكبيرة التي هاجرت مع بني هلال في القرن الثالث الهجري وقد كان لها مواقف متصلبة من الوجود العثماني في الجزائر وأنجبت العديد من الشعراء الذين تصدوا بشعرهم للأتراك منهم الشاعر ابن السويكت السويدي، انظر المهدي البوعبدلي الشاعر الشعبي الشيخ ابن السويكت السويدي، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة والاعلام، جانفي فيفري 1987، ص.ص 35-45. والشاعر بن السويكت شاعر شعبي جزائري سجل العديد من الملاحم والثورات التي قامت بها قبيلته سويد ضد الحكم التركي ببايلك الغرب انظر أحمد بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني، المرجع السابق، ص 34.

[3]– أحمد بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني، المرجع السابق، ص 36.

[4]– مدينة وادي رهيو تقع بين غليزان والشلف

[5]–قرية تقع غرب وادي رهيو بنحو 10كلم.

الترك جارُوا واسويد عُقّابهُم طافحـــين والترك شاربين الهبّال في سَطْلَـــة
الترك لَلْبلا ينزادوا واسويـــــــــد ما اعْطَاوْا الصفحـــــــــــــة[1]

وتأتي هذه الثورة بسبب رفض الأهالي وأمرائهم الخضوع للترك، وقد سجل شاعر آخر موقف بعض القبائل من وسط الشلف رفضت الخنوع والاستسلام بقوله:

قالوا الترك ندو الشلف لا وهمـــــة قلناهم جدودنا في الـــــواد
ما نَتْرَكُوشْ شلف حتى تطيب الصمة[2] وما نَهْدُوش العقبة على الأولاد[3]

ويؤكد الشاعر بن السويكت وجود انقلابات في ولاء القبائل للحكم التركي مما أدى في النهاية الى ضعف الثورة، فاختار الأهالي الجلاء عن مناطقهم التي يسكنونها نحو جهات أخرى، ورفضوا الخنوع والاستسلام، مذكرا في الان نفسه بتاريخ قبيلة سويد التي يزعم الشاعر أنها عربية مسلمة جاءت إلى المنطقة مع الفاتحين الأوائل أمثال عقبة بن نافع رضي الله عنه فقال:

ظَهْروا اشْوَايَعْ اسويد قعدَتْ مَتْوَخْرِينْ ملكوا الشرق والغرب تل والقبلة
مع الأمير عقبة جاوا مجاهديـــــن منين كانت الناس كلها جهالـة[4]

ودارت بين الأتراك والدرقاويين في بايلك الغرب حروب كثيرة امتدت حتى بايلك الوسط وشرق الجزائر ومن أشهر المعارك التي وقعت بين الطرفين معركة قرطاسة الشهيرة، التي دار رحاها سنة 1219هـ وقد ذكرها حسن خوجة التركي صاحب كتاب در الأعيان، وأورد أشعارا صورت من خلالها العمليات القتالية وبطولات القادة وهزيمة الأتراك رغم العدد والعدة منها:

---

(1)– أحمد بن سحنون الراشدي، النثر الجماني، المرجع السابق، ص 36.

(2)– نبات بري

(3)– يستفز الشاعر سامعيه من بني قبيلته للاستمرار في الثورة والمقاومة والتعاهد على تصفية الأتراك وأن لا يورثوا لأبنائهم مشاكل وأزمات في المستقبل.

(4)– أحمد بن سحنون الراشدي، المرجع نفسه، ص 37.

فرصاسة يومها ترى الجنوبـــــه ما بين قتلى وأسرى غير ناجينـــا
فالباي جاء بجيش لا نفاد لـــه به يريد لقا العدو باغينـــــــــا
فلم يحقق له سعي ولا أمـــــل بل جاء جنده صفر الكف بالحينا
فاليوم لابن الشريف عو فيه على باي الأعاجم لولا الدين لا دينـا

ولا شك أن هذه الأشعار الحماسية كانت لها قابلية الرسوخ في المخيلة الشعبية للأهالي بفضل التغني بها في مختلف المناسبات الدينية والأفراح والتظاهرات الصوفية وسوف تلعب هذه الأنماط الشعرية دورا لا يقل أهمية بعد 1830 سواء في مقاومة الأهالي للاستعمار الفرنسي، أو في إطار الصراع والنزاع على مناطق النفوذ بين مختلف القبائل حيث كان الشعر يحمل الملاحم وينقل البطولات ويخلد المآثر.

سادسا– خاتمة ونتائج:

من خلال هذا البحث الذين حاولت من خلاله توظيف النصوص الأدبية في ميدان التاريخ واستقراء حركية الشعر السياسي وعلاقته بالأحداث يمكن الحديث عن جملة من النتائج العامة والخاصة.

– **النتائج العامة**: ويقصد بها تلك النتائج التي تهم الأدب والشعر بصورة عامة، حيث يكاد يتفق جل المؤرخين على اعتبار فترة الحكم العثماني مرحلة الركود الأدبي والفني والعلمي، لانشغال العثمانيين بالأعمال العسكرية على مختلف الأصعدة، وكان من شأن هذا أن أدى إلى جملة من الانعكاسات يمكن حوصلتها في:

انحسار وقلة الأغراض الشعرية والقضايا المثيرة واقتصارها على مدح القادة والفاتحين خاصة الذين وقفوا في وجه الاحتلال الأجنبي أو سعوا في إخراجه، والتنويه بالحروب والثورات أو في نظم الأشعار النبوية والمدائح الدينية.

ضعف اللغة المستعملة في الشعر وبالتالي قلة استعمال أدوات الشعر والتفنن في استغلالها للتأثير في المستمعين مثل المحسنات البديعية، وأساليب التشبيه، والمقابلات وغيرها.

بداية تراجع الفصحى لحساب العامية التي صارت لغة الحماسة والبطولة والشهامة يفهمها الجميع ويتأثر بها خاصة في القرى والأرياف، واقتصار الفصحى على بلاطات المحاكم الشرعية وأحيانا بلاطات الباشاوات والبايات والنخب الدينية والثقافية.

تدني القيمة الفنية للشعر.

عدم الارتباط والتأثر بشعراء الماضي الفحول حيث لم يرد في شعرهم ما يدل على ذلك.

- **النتائج الخاصة:** وتتعلق بموضوع الشعر السياسي الذي هو مجال البحث الأساسي في هذا

المقال ويمكن حصرها في ما يلي:

اقتصار هذا الفن على دور السلاطين وقصورهم ومنازل بعض الوجهاء في فترات معينة حيث تتحول إلى منتديات للشعر[1].

انحباس هذا الفن في بطون كتب التراجم والسير التي فيها يتم تسجيل الشعر وتدوينه.

بروزه في مواطن القتال سواء مع العدو الأجنبي أو مع المتمردين في داخل البلاد حيث يلهب العواطف ويجيشها ويهيئها للقتال والمقاومة.

بروزه أيضا في مناسبات الأعراس والولائم التي تنعقد فيها المساجلات الشعرية المحشوة بالفخر والبطولات بين القبائل والأعراس، وعادة ما يكون السائد فيها الشعر العامي، وأثناء الزيارات للأضرحة وقبور الأولياء.

تداوله خلال الجلسات الحميمية بين الشعراء وغيرهم من المهتمين بالترويح عن النفس والهروب من مشاكل وأزمات المجتمع.

---

[1]- بن ميمون (محمد الجزائري)، التحفة المرضية، المرجع السابق، ص59.